في المضمون الثوري للثقافة

علال عمروشت

1 ـ الوعي الثقافي و الطبقي

مقولة ماركس الشهيرة "ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، لكن وجودهم المادي هو الذي يحدد وعيهم"(1) تقسم وجود الناس إلى تمظهرين:

ا ـ التمظهر المادي أو الوجود المادي: لقد إنوجد التجمع البشري عبر التاريخ في شكل بنى مادية غير ثابتة و لا نهائية.فبقدرما يؤسس الإنسان عبر مراحل طويلة لبنية بعينها و لعلاقات بذاتها، و يدفع بها عبر الجهد الخلاق لتصل أعلى مراحل النضج، بقدر ما تصبح مرحلة النضج نفسها بداية لبنية جديدة، حين تعلن عن أزمة كبرى سرعان ما تتفكك لتجد حلا تاريخيا لها في نظام جديد.إن هذا الإنتقال من نظام علاقات شاملة إلى نظام علاقات جديد هو ما تسميه الماركسية اللينينية "الشكل الثوري للتاريخ البشري".

الوجود المادي الذي تمر منه الإنسانية من الشكل الأدنى: المشاعية البدائية إلى الشكل الأرقى أي النظام الشيوعي مرورا بأنظمة الإستغلال: النظام الإقطاعي ثم الرأسمالي يعبر دوما عن إختلاف في الوعي الطبقي من شكل وجود إلى شكل وجود آخر.

ب ـ مقولة ماركس أيضا في أن" الوجود المادي هو الذي يحدد الوعي الإجتماعي" لا يمكن و لا يجب أن تفهم على أساس أسبقية الوجود المادي المطلقة و المكتملة عن الوعي. كما لا يجب أن نفهمه على أساس الترتيب البسيط كما في المنظومة العددية للرياضيات. إن الفهم الصحيح لعلاقة الوجود المادي و الوعي لا يمكن أن يصح سوى إنطلاقا من العلائق الجدلية التي صاغها

ماركس و طور قوانينها (قوانين المادية الجدلية) فلاديمير لينين.

إن تحديد الوجود المادي للوعي الفكري لخصه لينين في المقولة التالية "إن المادية عموما تميز الوجود الحقيقي الموضوعي باعتباره مستقلا عن الوعي و الإحساس و التجربة..ليس الوعي سوى إنعكاس للوجود و في أحسن الأحوال بما يقارب الإنعكاس الصحيح (الدقيق المناسب..) للوجود"(2). لكن من خصائص الوعي أيضا أن يتخلف في الكثير من الحالات عن النظام الإقتصادي و التشكيلة الطبقية، و عن تغير الظرف التاريخي. كما يمكن أن يسبق حالات من الانتقال و يمتد إلى مستقبل البشرية. و خير دليل تاريخي على ذلك هو حالة ألمانيا في القرن الثامن عشر حيث لا يمكن مقارنة التطور الفكري العظيم لهذا القرن بالتخلف الكبير للطبقات الإجتماعية (التشكيلة الطبقية) الألمانية، إذا قورنت بمثيلاتها في فرنسا وأنجلترا.

إن بنيات الثقافة التي تملكها الطبقات (الإديولوجيا، السياسة، الإبداع، العلوم، الدين، الجماليات، السلوك، التصورات، الأفكار الفلسفية....إلخ) لا تتحدد بالشكل الميكانيكي الميت، بل بالشكل الجدلي الماركسي الحي، و الذي يقوم في إحدى مظاهره على تدخل الطاقة الخلاقة للمجهود البشري. إن الوعي الثقافي إذن، هو الجدل الحي الفعال بين الوجود المادي و الوعي الطبقي. و تطور هذا الوعي الثقافي يتم حسب قوانين التأثير و التأثر غير الميكانيكية الجامدة.

الوعي الطبقي بإحالته إلى الطبقات، هو مجمل التصورات و الإبداعات و المعارف و الأفكار السياسية و القيم الحقوقية و غيرها التي تتحدد بها طبقة على خلاف طبقة أخرى، إنطلاقا من إنتمائها إلى علاقة طبقية داخل نظام إقتصادي قائم على الطبقية.

ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، لكن وجودهم المادي هو الذي يحدد وعيهم

إن التناحر الثقافي إنطلاقا من التحديد الماركسي أعلاه، هو مجموع عناصر الوعي الثقافي التي تواجه به طبقة مستغلة (بفتح الغين) طبقة مستغلة (بكسر الغين).و هو أيضا بهذا المعنى: الإمتداد الواعي للصراع الطبقي في البنية الفوقية

(البنية الثقافية). لقد حدد ماركس ذلك في مقولة واحدة: "جملة ممارسات طبقة ضد جملة ممارسات طبقة أخرى".مع أن هذا أل "ضد" ليس سوى التعبير الجدلي عن التناقضات بين طبقة في مواجهة طبقة أخرى. و هي التعبير الجدلي عن نتاقضات البنى المادية التحتية. و التحرر الثقافي هو الجهد الذي تخصصه الطبقات الكادحة من أجل الحرية الفردية و الجماعية من التصورات الكاذبة للإقطاع و الرأسمال في مضمون إبداعاتها الفكرية و السياسية و الجمالية .

2 ـ وحدة الوجود المادي و المضامين الثقافية للوعي

بالقول، إن الوعي الثقافي هو نتاج الوجود المادي، لا يعني أن الوعي الثقافي يتحدد خارج الوجود المادي أو حتى قائم إلى جانبه،كما توجد "التفاحة" على غصن شجرة التفاح. فالوعي الثقافي و الوجود الطبقي المادي ليستا عمليتين متوازيتين، بل هما عملية واحدة متجادلة بإستمرار تعبر على قانون "التجاوز".الجدلية، أيضا ليست بمفهوم "الترتيب" البسيط (الأول يليه الثاني) كما في العد الرياضي الطبيعي.فبقدر ما يؤثر الوجود المادي في ثقافة الطبقات ،بقدر ما تؤثر الثقافة في وجود الناس المادي.

نشرت جريدة "برافدا" (3) في ديسمبر 1920 رسالة شجب مرفوعة إلى بوغدانوف (4) و أنصاره الذين أنكروا وحدة أي دور جدلي للثقافة و بناء الإشتراكية، من خلال إنكار دور الحزب و الدولة في بناء "الثقافة الشيوعية"، و أن الطبقات السوفياتية يمكنها أن تبني ثقافاتها خارج النظرية و التطبيق الشيوعيتين. لقد هاجمت اللينينية هذه الأفكار الرجعية البرجوازية داخل المجتمع السوفياتي، هذه الأفكار اللاجدلية المتأثرة بفلسفة الفزيائي "ماخ" في الفكر. و مع ذلك، فقد إنهارت مدرسة "بوغدانوف" بالسرعة التي بنيت بها منذ أن وضعت أول أجورة لمفهوم "إستقلالية الثقافي عن التشكلية الإجتماعية" تحت سخرية العمال و الفلاحين أنفسهم، و تحت أقدام المثقفين الملتزمين بقضايا الطبقات الخاضعة للإستغلال و الظلم.

3 ـ في المضـــمون الثـــوري للأجنـــاس الثقافية

رأينا كيف يتجادل الوعي الثقافي و الوجود المادي، و قياسا على ذلك، سنرى كيف ينعكس الجدل على المضمون الذي تقدمه و تصدر عنه الأجناس الثقافية، بما فيها الأنواع الأدبية و الإبداعية عموما.

ظل "لينين" يحمل توجسا عميقا خلال و بعد نجاح الثورة البلشفية على السواء، أما هذا التوجس فهو بجملة واحدة "الثورة الثقافية". يقول بكلمات واضحة "لم نبدأ حيث يتوجب علينا أن نفعل حسب النظرية..لقد سبقت الثورة السياسية و الإجتماعية عندنا الثورة الثقافية التي تفرض نفسها علينا حاليا".

يطرح لينين ثلاثة إشكالات كبرى على كل ماركسي لينيني:

1 . تخلف الطبقات الكادحة (بالخصوص البروليتاريا و الفلاحين) عن ثقافة ثورة أكتوبر 1917.

2 . إشكالية المضمون الثقافي الثوري (و ليس شكله) بعد إنتصار الثورة العمالية الفلاحية في روسيا.

3 . أهمية الثورة الثقافية في كل بلد قبل و إبان و بعد الثورة الإشتراكية.

لاحظ لينين بعد نجاح الثورة إستمرار أفكار الماضي في ثقافات و إبداعات الطبقات التي أنتجت الثورة: الأفكار الرجعية للنظام الإقطاعي، الأفكار التحريفية للمنشفيين، الأفكار الميتافيزقية للمثاليين و الروحانيين، بل أفكار العصور البائدة .كل هذه الرواسب كانت تخترق ثقافات و تصورات الناس المنتصرين في روسيا، فتبدو الثورة معها غير مكتملة من جهة و مهددة بالردة الكبيرة من جهة ثانية.و قد عبر لينين عن ذلك بمقولة جميلة هي "إستمرار عشب الماضي السيء" في إبداعات و فكر روسيا الشيوعية.

ليس الأدب الشيوعي بهذا المعنى سوى عملية عظمى و مستمرة من إقتلاع هذا "العشب السيء " من تصورات الناس و إبداعاتهم.و ليس الشعر سوى "مصباح ديوجين "(5) للبحث عن عشب آخر للإنسانية غير العشب البرجوازي و الإقطاعي السيئين. و قد قال الشاعر الشيوعي

اليوناني يانيس ريتسوس .(6) صاحب قصيدة (الرجل ذو القرنفلة الحمراء) ما يلي "إذا لم يكن من الشعر رهان، فعبثا ننتظر الرهان من أي شيء" .أما الرهان عند ريتسوس فهو إقتلاع "العشب البرجوازي السيء".

إن الرواية و المسرحية و القصة و القصة القصيرة (و القصيرة جدا) و القصيدة الشعرية و اللوحة الفنية و الشريط السينمائي و سائر الإبداعات الأخرى من وجهة نظر الماركسية اللينينية، هي نضال عظيم من أجل "إيقاظ العبقرية النائمة داخل كل إنسان".كما قال لينين . من جراء توالي الأنظمة الطبقية التي قتلت في الذات البشرية كل رغبة و أمل في التحرر من الإستغلال المادي و المعنوي.

إستمرار عشب الماضي السيء

لقد ظل لينين يردد بحرقة كبيرة غداة إنتصار الثورة البلشفية، و هو يحلل ديالكتيك الثورة، ما يلي:"إننا أميون"، لا بالنظر إلى عدد الروس الذين يجهلون القراءة و الكتابة، و لا بالنظر لعددهم الذي يجهل العلم و التقنية فحسب، بل بالنظر إلى "الخواء " الذي تقدمه الأعمال الأدبية و الشعرية و الفنية عموما، و الذي لا يتقاطع/يتجادل مع الإنتقال من روسيا القيصرية إلى روسيا الشيوعية" ."إننا أميون" هاته كان يرددها و هو ينظر إلى "العشب السيء" يغزو الإبداع و الفكر.

لقد أيقظت هذه الشرارة الحس الثقافي لدى "ماوتسي تونغ"، و جعلته يمهد لثورة الصين الشيوعية (16مايو 1966) ب "الثورة الثقافية "التي تكلم عنها لينين، بعد أن ساهم في النضال الصيني منذ (1919) . كما أيقظت نفس التخوف لدى "أنطونيو غرامشي" الذي صاغ نظرية "الإصلاح الثقافي" لثورة البروليتاريا الإيطالية ، وجعلها مقدمة (مثل ما توجس لينين)للإشتراكية. يقول غرامشي: "أن البروليتاريا لا تتمكن من الإستيلاء على السلطة في الديموقراطيات البرجوازية إلا إذا سبق محاولة الإستيلاء "إصلاح ثقافي". و البروليتاريا شأنها شأن كل الطبقات الصاعدة تخلق مفكرين و قادة ليكونوا حاميتها الأمامية، و مفكريها العضويين، و ترافق هذه الأمور ضرورة ربح

"الحرب الثقافية"(7) الطرح الأخير يأتي في سياق "حرب المواقع" كإستراتيجية غرامشية.

مفهوم الثورة "البكماء" الذي حذرت منه الماركسية اللينينية مع لينين و ماو و غرامشي و آخرين يؤشر على خاصيتين :الخاصية الأولى، هي ضرورة الثقافي كمقدمة و كعمق لأي نضال ثوري. و الخاصية الثانية هي ضرورة مضمون ثوري في كل ثقافة ثورية. الحقيقة أن المرور إلى الخاصية الثانية يتطلب بالضرورة برنامج "الإعداد الثقافي"، كما أن تغيير النظام الرأسمالي إلى الإشتراكية لا يتم و لا ينبغي له أن يتم دون المرور على "إعداد ثقافي" يمس كل البنيات و الأجناس الثقافية و خصوصا الإبداعية و الفكرية منها.

4 ـ خاتمة

رفض لينين مثله مثل ماركس تماما فكرة "البداية من الصفر" لا في الفلسفة و لا في الثقافة، فقد وجه إنتقادا كبيرا لجماعة "البروليتكولت" التي كان بوغدانوف أحد روادها. الجماعة التي تزعم رفض كل الفكر القديم و الثقافة القديمة و"البدء من الصفر" لإعداد "ثقافة بروليتارية". و عوض رفض كل الماضي فإن لينين يدعو إلى البحث عن ما هو بروليتاري في الثقافات البشرية و تشجيع الجوانب المشرقة فيها، قائلا ما مفاده: لو أن ماركس رفض كل تراث الماضي الفلسفي، لما كان هناك شيء إسمه الإشتراكية. و علل جوابه بوجود جوانب من "العشب النقي" في كل إبداعات الشعوب سواء الفكرية أو الأدبية يقول: "يجب أن نفكر عندما نتكلم عن "الثقافة البروليتارية" بكل هذا. لم يكن بوسعنا أن نحل هذه المسألة لو لم نكن مستوعبين تماما للثقافة التي أنتجتها الإنسانية عبر العصور ، و لدور هذه الثقافة الأساسي في مساعدتنا على خلق الثقافة البروليتارية. لا تنبثق الثقافة البروليتارية من مكان مجهول، و هي ليست إختراع أشخاص أخصائيين في الموضوع. هكذا قول، هو حماقة ليس إلا(8) . و هذه دعوة للتفكير النقدي بواقعية إشتراكية في كل التراث الذي أنتجته الحضارات البشرية.فالأمر لا يتعلق بإختراع ثقافة ماركسية لينينية، و إن كان ذلك مهما للغاية. لكن الأمر يتعلق بتطبيق الماركسية اللينينية على كل مناحي

الحياة، بما فيها المنحى الثقافي و الإبداعي.

2015 . 11 . 15

المراجع

1 ـ كارل ماركس، "نقد الإقتصاد السياسي"، ص 3

2ـ فلاديمير لينين، المختارات،الطبعة الأنجليزية. ص 377

3ـ تأسست جريدة البرافدا سنة 1912، في سانت بطرسبورغ، و كان لينين أحد مؤسسيها.

4 ـ ألسكندر بوغدانوف 1873/1923، إشتراكي ديمقراطي روسي، فزيائي و فيلسوف، إنتقد لينين و بليخانوف آراءه الفلسفية .

5 ـ ديوجين الكلبي، فيلسوف إغريقي قديم، عاصر الإسكندر المقدوني.كان متشردا يحمل مصباحا في واضحة النهار، و كان إذا سئل لماذا؟ يجيب: إني أبحث عن "الإنسان". قال عنه الإسكندر: لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجين.

6 ـ يانيس ريتسوس، شاعر شيوعي يوناني، عاصر مرحلة النظام العسكري الفاشي في اليونان. أعتقل و عذب، من أعماله "التركتورات" "البعيد"، و قد كون لويس أراكون لجنة دولية للمطالبة بإطلاق سراحه.

7 ـ بياروموتيك فافر.الماركسية بعد ماركس.ترجمة نسيم نصر. ص 169

8 ـ نقلا عن: جاك ميلو/ميشيل سيمون/غي بس."لينين :الفلسفة و الثقافة" ترجمة جوزيف سماحة.ص 123